

الذِّخَائِرِ وَالتَّحْفِ للقاضي الرشيد بن الزبير

(القرن الخامس الهجري)

د / محمد عمر بشينه

كلية الآداب / الجامعة الأسمرية

يتكون هذا الكتاب من مقدمة، وعشرة أبواب وفهارس وملحق، ومجموع صفحاته 367 صفحة، وهو من نوادير ما ألفه العرب باسم التراث العربي، يهدف إلى توضيح ملامح حضارتنا، والكشف عما غمض من تاريخنا. والكتاب نادر فريد، ولم يعن بموضوعه إلا القلائل من مؤلفينا، ويتناول هذا الكتاب جانبين مهمين هما:

الأول: تبدو الحضارة الإسلامية العربية من خلال الذخائر والتحف، التي وجدت في قصور الخلفاء والملوك والولاة والقواد والناس. والهدايا التي تبادلوها. والولائم التي أقاموها.

الثاني: الصلات الدبلوماسية بين ملوك العرب وملوك أوروبا والهند والرسائل التي تراسلوا بها، والتحف التي تهادوها، والواضح من الكتاب أن مؤلفه شاهد بنفسه وسمع بعض ما كتبه، الأمر الذي جعله مصدراً مهماً في الجانب الحضاري، فنقلت عنه مصادر عدة، وجاء هذا الكتاب في عشرة أبواب كل باب يتناول نوعاً من الذخائر والتحف :

ففي الباب الأول: يتحدث مؤلف هذا الكتاب عن نكت من مشاهير الهدايا، والذي جاء فيه نكتاً من مشاهير الهدايا العظيمة الأقدار، وطرفاً من التحف الجسيمة الأخطار، قبل الإسلام وبعده، أما هدايا الملوك والجلّة بعضهم لبعض، ورسائلهم فقد ذكر جماعة من المؤرخين الثقات ما كان كتب به ملك الصين إلى كسرى أنو شروان هادنه، وبعد هذه المكاتبة قدم له الهدية فارساً بفرسه من ذر منضد، والملاحظ أن أغلب الهدايا المذكورة في هذا الباب هي أصناف الأسلحة والأمتعة، والخدم والجواري، والجوارح المعلمة، والدراهم والثياب الخز، والديباج، والعتابي، والقصب، والديبقي،

والملمح ، والمصمت والأفراس ، وهدايا أخرى لا يتسع المقام لذكرها ، يجدها القارئ الكريم في ثنايا هذا الكتاب.

وأما الباب الثاني: ويشمل النفقات في الولائم المشهورة، والدعوات المذكورة في الإسلام بدوله، مثال: هذه النفقات التي أنفقها عمر بن عبد العزيز عندما دخل بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وكذلك لما دخل الرشيد بالله بزوجته زبيدة أم جعفر استعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها من الآلة ، وأصناف الجواهر، والحلي، والتيجان والأكاليل وقياب الفضة والذهب. والطيب. والكسوة. والخدم والصواف، وغير ذلك من النفقات والولائم.

والباب الثالث: يتضمن الإعذارات(*) الموصوفة، والحذاقات المعروفة في الإسلام بدوله، منها: ممن كان إعدارهم في عام واحد، هم علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وسعد وعبد الله بن عامر إطعام الفالوذج واللحم، وغيرها من الإعذارات الموصوفة، والحذاقات المعروفة التي تجدونها في هذا الباب. قبل الإسلام وبعده، حيث كانت الأكاسرة إذا وردَ عليها رُسُلُ ملوك العرب والروم أمرت بتعبئة

والباب الرابع: يتكون من الأيام المشهورة، والاجتماعات في الأوقات المعهودة والمحافل المحشودة الجيش في عشر كتائب. كل كتيبة عشرة آلاف فارس، بالجواشن المذهبة ، والحرب اللامعة، والدروع المُفرَّغة، والأعلام المذهبة، من ساباط المدائن إلى الإيواء. ثم يُمرّ بالرُّسل على كتيبة كتيبة. حتى إذا أشرفوا على باب الإيواء رُفِع لهم عنه. وكانا إيوانين متقابلين بينهما فسيح من الأرض، وفي وسط ذلك قبةً من الأرجوان ارتفاعها عشرون ذراعاً معشاةً بأجلةً الديباج المنسوج بالذهب

(*) الإعدار: (هو طعام الختان) . مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، (مادة عذر)، منشورات مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ط 2 ، (د.ت) ، ج 2 ، ص 611؛ وفي كتاب فقه اللغة: طعام الختان: العذيرة. الثعالبي. أبو منصور عبد الملك بن محمد، كتاب فقه اللغة وأسرار العربية، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 1997م، ص 153.

الأحمر، وفيها جامات من البلور الأحمر والأبيض. وأنواع الأصباغ وفي وسطها سلسلة من الذهب.

والخامس: جاء بالغرائب الموجودات، والذخائر المصنونات، منذ عصر الرسول ﷺ، على سبيل المثال لا للحصر: ما وجده الرسول ﷺ حين فتح مكة وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب الذي كان يهدى للبيت، وغير ذلك من الغرائب الموجودات، والذخائر المصنونات في التاريخ الإسلامي سيجدها القارئ الكريم في هذا الباب مفصلةً.

والسادس: درس التّرك الموروثات، منذ الجاهلية، وهذه الموجودات بعد الوفيات من التّرك الموروثات، فقد ذكر العصر الجاهلي وما ترك الخلفاء بعد رسول ﷺ، وصحابته وذوهم وعمالهم ومن يتعلّق بهم، ليس هذا فحسب، بل حتى التّرك الموروثات في الدول المصاحبة لدولة الإسلام مثل دولة الروم.

وأما الباب السابع فقد تناول: ما خلّفته أمهات الخلفاء وذوهم، وبدأ المؤلف بالدولة العباسية، وفي هذا الباب ذكر المؤلف حديثاً مطولاً عما خلّفته أمهات الخلفاء وذويهم من ممتلكات وأموال، وكذلك ما خلّفته النساء العباسيات من ضياع غلال- وأيضاً - ما كان لدى النساء العباسيات من ملابس، وذكر بعض الدول الأخرى نتركها للقارئ الكريم.

وشمل الباب الثامن: المغنم في الفتوحات، والمقاسم في الغزوات، منذ عصر الرسول ﷺ، وفي هذا الباب جاء ابن الرّشيد بمعلومات فياضة عن غنائم الرسول ﷺ يوم حنين، وكذلك غنائم المسلمين يوم القادسية، من الغنائم ما لم ير قطّ مثله كثرةً ونفاسه، وكذلك ماغنم يوم وقعة جلولاء، وقد رصدها بقوله: ألف ألف متقال، واثنتي عشرة ألف جارية، وذكر أيضاً العديد من الغنائم من فارس أو من أفريقية ينصح بتتبعها في هذا المصدر الرّصين في معلوماته.

وتطرق الباب التاسع: للكنوز والدفائن والمطالب القديمة وذكر من وجدها، في أيام عمرو بن العاص عندما فتح مصر في سنة عشرين قال لعظمة القبط: من

كان عنده مال فليأتنا به. قال: فأُتيَ بمال كثير، وغير ذلك من الكنوز والدفائن والواردة في هذا الباب.

وجاء في الباب العاشر: بالنفقات قبل الإسلام، والدول المصاحبة له، وقد أضاف شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي المقرئ الشافعي آخر الكتاب باباً تحت عنوان الزيادات ذكر فيه الهدايا والتحف.

وأخيراً الفهارس: وتتكون من فهرست الأسماء والأعلام، وفهرست ألفاظ الحضارة، وفهرست موضوعات كتاب الذخائر، وفهرست قوافي الأبيات على حروف التهجي.

وجاء بعد الزيادات السابقة زيادات أخرى في خمس صفحات درست غرائب الأبنية التي في الدنيا كالأهرام، ومملكة كسرى أنو شروان التي لم تكن لأحد من الأكاسرة والملوك مثلها، حيث نُقلُ تسع مئة وخمسين فيلاً، وسرائر الملك وحاجيات الملوك في قصورهم هذه هي خلاصة تلك الزيادات، وعلى القارئ الكريم الاستزادة في تتبع تلك الزيادات.

وذيل الكتاب بعدة فهارس، أولها: فهرست الأسماء والأعلام الواردة في الكتاب وجاءت مرتبة حسب الحروف الهجائية، مع وجود رقم الصفحة التي بها العلم، وأيضاً فهرست لألفاظ الحضارة، والرقم الذي أمام كل مصطلح يدل على عدد الفقرة وليس الصفحة، وكذلك فهرست موضوعات كتاب الذخائر والتحف، وقد سبق رقم الموضوع وهو رقم القصة وليس الصفحة، وفهرست قوافي الأبيات على حروف التهجي وجاء مقسم على الفقرة، والشاعر، أول البيت، والقافية، وأخيراً فهرست الأسماء التي سماها المؤلف، وكان عددها اثنين وعشرين كتاباً.

وأما الملحق فقد ضم نماذج من صور بعض التحف، التي عثر عليها في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ويعود تاريخها إلى العصر الفاطمي.

وهذه الصور تعطي فكرة عما كانت عليه الحضارة العربية الإسلامية، في العصر الفاطمي، وعن التحف التي ورد ذكرها في هذا الكتاب وهي ست عشرة لوحة

منها الخزف ذو البريق المعدني، والرسم على الورق، وعقود الذهب في العصر الفاطمي، وتمثال ضارب على الدف من البرونز، ودينار باسم المستنصر سنة (441 هـ / 1049م)، وكذلك قطعة نسيج باسم الحاكم، وأيضاً نسيج من الحرير عليه أشرطة زخرفية متتالية تتخللها كتابات دعائية صنع في مصر في القرن السادس الهجري، ومنها نقش بجامع الحاكم، ونقش على الرخام في العصر الفاطمي، وأيضاً نموذج من خشوة خشبية، ومحراب مسجد السيدة رقية، فقد أحتوى الكتاب نماذج عدة من تلك التحف.

وهذا الكتاب ذو قيمة علمية جيدة، بذل فيه مؤلفه جهداً لجمع مادته العلمية، من مشاهداته ومن عدة مصادر مهمة.

وعلى رغم الجهد الكبير الذي بذله المؤلف فإنه جاء دون خاتمة، عدا هذه الملاحظة فإن الكتاب يعتبر دراسة قيمة ذات فائدة كبيرة لتاريخ الإسلام وما قبله، و فيه موضوعات متنوعة وجديدة مفيدة للقارئ وللباحث على حد سواء، ويستحق أن يُقرأ ويدرس من قبل الباحثين لتعم الفائدة للجميع.